المطبوعات المغربية الحديثة

ظهور كتاب « النبوغ المغربي في الأدب العربي »

تأليف الأستاذ عبد الله كنون الحسيني

خطوة عظيمة في تاريخ الفكر المغربي

الملحق الثقافي لجريدة المغرب

السنة الثانية - عدد 8 يونيه 1938 وعدد 9 الموالي له

سعيد حجي

نظريتان متناقضتان تصورهما جماعتان متناقضتان عن ماضي الفكر المغربي، الأولى متشائمة ترسم لهذا الماضي صورة ذابلة، والثانية متفائلة ترسم لهذا الماضي صورة رائعة.

تنظر الأولى إلى الإنتاج الفكري في أمم العروبة والإنتاج العالمي في أمم الأرض الأخرى وتتساءل أين إنتاج المغرب من هذا وذاك؛ والمشاهدة تؤيد زعم هاته الجماعة إذا دخلنا إلى مكتبة للمطبوعات إذ يعسر أن تجد ديوان شعر أو كتاب أدب أو بحث علم أو دراسة تشريعية ألفت في العصور المغربية الماضية وطبعت اليوم طبعة يتناولها الجمهور ويستفيد منها. وتغادر مكتبة المطبوعاتوأنت تتأثر بهاذه النظرية وتكاد تتشيع لها.

أما الجماعة الثانية فلم تتصل بالماضي المغربي عن طريق المطبعة بل عن طريق المخطوطات التي لا توجد إلا عند طائفة لا تتجاوز أصابع اليد في المغرب وفي مكاتب المغرب الحافلة، وليس من الهين على القارئ العادي أن يحاول أن يتصل بتلك المخطوطات لينفى زعم الطائفة الأولى. وبذلك يظل الماضي المغربي مظلم الجوانب غامض

الاتجاهات عديم الإنتاج الخالد في أعين الجمهور وكمية مهملة في نظر الجيل الجديد.

ومن حسن الحظ أن الطائفة الأولى المتشائمة لم يكن تشاؤمها نتيجة اطلاع ولا خلاصة بحث، فليس من المستحيل إذن أن يهاجم المرء نظريتها ليهدمها في أول مرحلة لنهضتنا الفكرية المقبلة. ولعل كتاب « النبوغ المغربي في الأدب العربي » الذي أود اليوم أن أتحدث إليكم عنه هنيهة وفق إلى وضع اللبنات الأولى في أساس تلك النظرية وأن عنصر تلاشيها أصبح يدنو وأجلها يقترب بفضل هذا التأليف المهم وبفضل ما سيظهر في هذا الميدان من مجهودات أبناء المغرب.

ولست الآن بصدد الاجهاز على تلك النظرية بل حسبي أن أستعرض أمامكم بشيء من الإيجاز محتويات هذا التأليف الذي ظهر اليوم، وأنا متيقن أنه بعد ذلك سيتاح لكم أن تلقوا نظرة واسعة على الماضي المغربي بمبادرتكم إلى مطالعة « النبوغ المغربي في الأدب العربي » بحماس ولهفة، فهو جدير أن يعد الخطوة الأولى العظيمة الموفقة إلى إزاحة الستار عن الفكر المغربي في العصور الغابرة، وإن الواجب يحتم أن يكون هذا التأليف المهم في مكتبة كل مغربي وأن يطالعه كل شاب مطالعة دراسة وإمعان نظر ليسد منافذ فكره عن النظرية الأولى المتشائمة ويضع تصميمه لدراسة يقوم بها لناحية من نواحي هذا الماضي العديدة.

والكتاب ليس دراسة لآداب المغرب وأدبائه فحسب، بل هو كتاب يجمع إلى ذلك دراسات عن العلوم التي كان لها حظ من الانتشار في ذلك الماضي وعن الاتجاهات السياسية والتاريخية التي لعبت دورا خطيرا في توجيه الحركات الفكرية والدينية، فهو جدير أن يعد تاريخا للفكر المغربي بوجه عام.

ومن الواجب أن نعلن هنا مع مؤلفه أن ميزة « هذا الكتاب في أنه ليس لقطر من أقطار العروبة اليوم نظيره إذ أن جميع كتب الأدب وتاريخه عامة تنظم البلاد العربية جمعاء » بينما هذا الكتاب يتناول أمة واحدة من أمم العروبة، ولقد بذل مؤلفه مجهوده في ألا

يتعرض إل الأشخاص غير المغاربة الذين احتضنتهم دولنا الماضية وشجعتهم على التأليف والبحث والإنتاج، فضرب صفحا عنهم ليعطيك صورة من الأدب المغربي الخالص.

وهنا يجب أن نشرح رأى المؤلف في تقسيم عصور المغرب الفكرية، فإنه لم يتبع طريقة المؤلفين الذين يتصورون أن الحركات الفكرية هى وليدة الانقلابات الدولية والاتجاهات السياسية، بل إنه يدمج دولتين أو أكثر في عصر واحد، فأدمج ه اذه الدول الأولى وهى الأدارسة وبنو العافية ومغراوة وبنو يفرن وغيرها في عصر واحد سماه عصر الفتوح، وأدمج الدولتين المرابطية والموحدية في عصر سماه عصر الموحدين، وأدمج المرينيين والوطاسيين في عصر واحد سماه عصر المرينيين؛ أما الدولتان السعدية والعلوية فقد أفرد لكل منهما عصرا خاصا.

ابتدأ المؤلف بدراسة سليمة الاستنتاج، واضحة المرمى، عن عصر الفتوح الإسلامية، وكيف انتشر الإسلام بالمغرب، وكيف استعرب المغاربة، ودرس الصراع بين حاملي رسالة الإسلام العرب وبين البربر سكان البلاد، فصور بذلك كيف خرج المغرب في عهده غير الإسلامي إلى عهد إسلامي مستقل في إدارته وفي حركاته الدينية والاجتماعية والفكرية عن أمم الإسلام الأخرى على أيدي الفاتحين من عقبة بن نافع وموسى بن نصير اللذين بذرا البذور الأولى للإسلام بهذه الديار، ولكن ظل الشعور الديني في ضعف والإيمان في تذبذب نظرا لتسرب الخوارج إلى المغرب فارين من الحكومات الإسلامية بدمشق وبغداد ولأسباب أخرى إلى أن أتى ادريس بن عبد الله المؤسس الأول لحكومة المغرب الإسلامي، فتوافدت عليه قبائل المغرب تبايعه، فتسلم أمر المغرب، وقضعلى فتنة الخوارج، فوضع الحجرة الأولى في استقلاله بفصله عن خلافة العباسيين ببغداد، واستعرض الأسباب التي أدت بالمغاربة إلى التعجيل في اعتناق الإسلام، وتتلخص في يسر شريعته، وحسن معاملته، ورفق الولاة المسلمين وعدلهم.

ثم تعرض للعوامل التي أدت بالبربر للاستعراب حتى أصبحوا في أمد وجيز يتكلمون ويخطبون بالعربية فيجيدون، وأستشهد لذلك بخطبة طارق بن زياد وأثبت أن سرعة انتشار العربية لا يقل عن انتشار الإسلام، ومن ذلك تخلص إلى الصراع الذي وجد في ذلك العهد بين العرب والبربر فأفصح أنه صراع على استغلال المنافع لا صراع دين إذ أن الإسلام ساد بعد مولانا ادريس الأول سيادة تامة.

وحاول أن يلقى نورا على النهضة الفكرية في هذا العصر فأعوزته المصادر التي تعوز كل من أراد ذلك، فردد « أنها فترة طويلة مرت على المغرب بعد دخول العرب إليه بدون أن يحصل فيها على طائل من علم أو معرفة أو بحياة أبية جديدة » وعلل ذلك تعليلا قد تقع الموافقة عليه وقد لا تقع، ولكنه تعليل مستند على حجج لها نصيبها من الصحة. ولم يغفل أن يتعرض لانتشار مذهب مالك في التشريع، وللنور الذي كان يسطع من سبتة تلك المدينة التي كانت تجاور الأندلس.

وبعد ذلك انتقل إلى العصر الذهبي الأول لدول المغرب فدمج العصر المرابطي والعصر الموحدي في عصر واحد وتحدث عن عبد الله بن ياسين ومجهوداته في نشر المعرفة ببلاد صنهاجة وحروبه لتوطيد دعائم الإسلام بين قبائلها. ثم تحدث عن العصامي الفذ يوسف بن تاشفين « الذي غير خريطة المغرب وقلب ممالكه العديدة رأسا على عقب وأزال كل الحواجز التي كانت تفصل بين أقطاره المتجاورت » .

ثم تحدث عن الثورت الكبرى التي قام بها الموحدون فشرح مذهبهم وتأثيره على المجتمع المغربي، ومن ثم دخل لسير الثقافة في الدولة الموحدية، فتكلم على تشجيعها للأدب وعطفها على الأدباء، وأتى بأمثلة واسعة واستطرد الكلام بمناسبة ذلك عن اهتمام هذه الدولة بالبربرية وسمى ذلك بالمهزلة التاريخية، ثم تحدث عن الحركة العلمية فاستعرض الناحية التشريعية والاعتقادية أولا، ثم ناحية علوم العربية والسير والتاريخ ثانيا؛ وبعد

ذلك أتى على نشاط الفلسفة بهذا العصر وتكلم عن اهتمام البلاط الموحدي بها وتشجيعه لرجالها، ثم تكلم عن الفن المعماري والهندسة البنائية والفلاحة والطب والكيمياء والنبات ثم الفنون الرفيعة من نقش وفسيفساء وغيرهما.

ثم أخذ يعدد رجال الفكر في هذا العصر يسرد سيرهم ومؤلفاتهم، ويكفي أن نذكر من هؤلاء الرجال القاضي عياض والإدريسي وأبا عمران الفاسي والمراكشي.

ثم أتى على جريدة بأسماء المؤلفات التي ألفت في هذا العصر فذكر كتب الحديث والتفسير ثم كتب المنطق والأصول والتاريخ والتراجم والجغرافية وكتب الأدب والدواوين الشعرية وكتب النحو واللغة والحكمة، وهناك يصرح المؤلف أنه «لم يذكر ما ألف في هذا العصر برسم الخزانة السلطانية من غير المغاربة من علماء الأندلس وإفريقية.

وبعد ذلك تناولت دراساته الحياة الأدبية في هذا العصر فأثبت أن الأدب في عهد المرابطين كان أندلسيان محضان؛ أما في الدولة الموحدية فقد تغيرت الوضعية وأصبح للمغرب أدباء مغربة بفضل تنشيط الموحدين للأدب ورعايتهم له، وبفضل المنافسة التي كانت مشتدة بين العدوتين ورغبة من المثقفين المغاربة لاشغال المناصب الرفيعة في دولتهم.

فالآداب المغربية لم تكن في هذا العهد صورة مماثلة للأدب الأندلسي مثلما تصور البعض بل مميزة عنها تعبر عن شعور أهلها ولا تتأثر بالأندلس إلا كما تتأثر بالشام والعراق.

ثم أخذ المؤلف يترجم للأدباء المغاربة في هذا العهد مثل أبي جعفر بن عطية وابن حبوس وسليمان الموحدي وأبي العباس الجراوي والخطابي وابن عبدون المكناسي.

ثم تناولت دراساته العهد المريني، فبعد أن ألقى نظرة سياسية تاريخية على انحلال الدولة الموحدية وسرعة فنائها تحدث عن قبائل بني مرين وزناتة وذكر أنها كانت قبائل تخضع في أحكامها للشرع الإسلامي، وصور ما كانت تتمتع به من شبه استقلال ذاتي وصراعها مع الموحدين إلى أن تم لها الأمر والنصر في واقعة فاصلة يوم « المشعلة » ، وبعد أن درس

طويلا مطامع المرينيين ونتائج سياستهم في ميادين الحرب والسلم تحدث عن عروبتهم وتمتينهم للوحدة المغربية وفخامة سلطتهم وأبهة خلافتهم واهتمامهم بالحياة الفكرية ذلك الاهتمام العظيم الذي أدى إلى موت جمهرة وافرة من العلماء عندما صحبوا أبا الحسن المريني إلى تونس فهاج البحر عند رجوعهم وذهبوا ضحية اهتمام البلاط المريني بهم.

وبعد ذلك عقد فصلا لنشاط الحركة العلمية لا أريد ولا أستطيع تلخيصه لكم، فهو جدير بالمطالعة والدراسة؛ فإن سير الثقافة المغربية لم تؤثر عليه الانقلابات السياسية التي أدت إلى اضمحلال الموحدين وتولية المرينيين، بل لقد اتسعت الميادين العلمية التي كانت في العصر الماضي أيما اتساع. ففي التشريع ازدهر علم الفروع أعظم ازدهار وعلوم اللغة أيضا بلغت شأوا بعيدا، فانتشرت العربية انتشارا مدهشا حتى أن مؤلفا اهتم بتدوين لهن العامة مما يدل على أن اللحن كان إذاك يستطيع الإنسان عده. أما التاريخ فالعصر المريني عصر ازدهار ويكفي أن يكون فيه ابن أبي زرع وابن خلدون الذي ألف كتابه برسم خزانة الخليفة المريني إلى غيرهما من فطاحل المؤرخين، وفي هذا العصر وجد الرحالة الشهير ابن بطوطة والرحالة الكبير ابن رشيد.